الأبعاد النفسيّة-الروحيّة للتّغيير والثّورة.. "الجهاد الأصغر" و"الجهاد الأكبر"

مالك أبو حمدان



"بالأمس كنتُ ذكيّا، فـأردتُ أن أغيّـر العـالم. اليـوم أنـا حكيمٌ، ولـذلك سـأغيّر نفسـي".
عندما قـرأت للمـرة الأولى هـذه الحكمـة الشـهيرة المنسـوبة إلى جلال الـدين الـرومي (توفي عام ١٢٧٣ ميلادي)، المعروف بـ"مولانا" أو بـ"سلطان العاشـقين"، وهـو الحكيم والشاعر والمتصوف الكوني الصيت.. أدركت على الفور أنها لا تعني أمراً عابراً. بل هي تشـير، بلا شـك، إلى سـرّ من أسـرار النفس الإنسـانية العميقـة، وإلى سـرّ من أسـرار

الوجود ككل. لكن ما هو هذا السرّ؟ ماذا يقصد صاحب "المثنوي" و"كتاب فيهِ ما فيـهِ"؟ هل يتوجّب علينا أن نتخلّى عن السعي إلى تغيير الواقع الخارجي، بخلاف ظاهر ما نقل عن سيَر الأنبياء والرسل والأولياء والحكماء من أغلب الثقافات والحقب؟ أم أنّ القضية أعمـق، وتـدلّ بالتـالي على طريـق من الطـرق الأنجح للوصـول إلى التغيـير الحقيقي والجوهري؟ ما سرّ هذه القضية التي يمكن ملاحظة هيمنتها القوية نسـبيا ضـمن الفكـر الشـرقي لا سـيما منـه الهندوسـي، عـداك عن هيمنتهـا في إطـار الجماعـات الصـوفية (بمعـنى "الميسـطيقية" Mystiques)ـ حـول العـالم؟ مـع الـوقت، ومن خلال التجربـة الشخصـية أولاً (ومنهـا "التـذوّق الـرّوحي" كمـا يعبّـر عنـه بعض العرفـاء)، ثم من خلال التفكّر في المفاهيم، توصّلتُ إلى هيكل وجودي-سـلوكي عـام يمكن بنـاؤه انطلاقـا من هذه الحكمة الكونيّـة، والـتي "كُشـفت" لكثـير من الحكمـاء من كـل الثقافـات والأديـان والعصور. وتأخذ هذه المناقشة طابعا عمليّا ملحّاً، لا شكّ فيه عنـدي، في ظـلّ الأحـداث الراهنة في العالم العربي ككـل، وفي لبنـان على وجـه الخصـوص، لا سـيما مـع الجـدل القائم حول التغيير والثورة وما إلى ذلك من مصطلحات غدت في قلب حياتنـا اليوميـة. لنسافر معاً، إذن، بين الفرضـيات الأساسـية الـتي يمكن اسـتخراجها من هـذه الحكمـة، لنصـل بالتـدريج إلى الهيكـل المـذكور، والـذي يشـكّل ثـورة حقيقيـة (و"عجيبـة") على مفاهيمنا الكلاسيكية كما سنرى.. والأهم، أنه يعكس قناعة راسخة لدى عـدد لا يسـتهان به من حكماء وعرفاء هذه الأرض وهذه الإنسانية. لمـاذا ينبغي أن يكـون موقـف الحكيم هو أن يغيّر نفسه بـدلَ أن يسـعى إلى تغيـير العـالم ("الخـارجي")؟ في البدايـة، ينبغي التذكير بأنّ مدرسة الرومي تؤمن بتفوق الحكمة الحدْسية (بمعـنى: الكشـفية والقلبيـة) على العقل المفكّر، وهي فكـرة أبسـتيمولوجية في قلب الحكمـة الصـوفية الهندوسـية مثلاً، وخصوصاً، في قلب المدرسة الأفلاطونية المحدثة، وفي قلب الفلسفة العرفانيـة-الصوفية الإسـلامية الممتـدة من بغـداد القـرن التاسـع الميلادي تقريبـا، إلى أبي حامـد الغزالي، إلى "شيخ الإشراق" شهاب الـدين السـهروردي (تـوفي صـوب ١١٩١ ميلادي)، صــاحب شــعار أنّ "الصّــباح خـير من المصــباح". أي أنّ إشــراق الحقيقــة على القلب الصافي والطاهر (كالمرآة)، هو خيرٌ من ظهـوره على العقـل المفكّـر المحـدود. لـذلك، فإنّ عبارة جلال الدين الرومي، تتضمن هذا المعـنى: كنت في البدايـة على موجـة ذكـاء سفليّة (وهي موجة التفكّر أو العقل المفكّر أو الذهن كما يسميه حكماء الهندوس).. ثم انتقلتُ إلى موجة أعلى وأصدق إنباء: وهي موجـة الحكمـة المشـرقة من خلال الكشـف القلـبي. وهـذه الأخـيرة هي الـتي أوصـلتني إلى قناعـة أنّي: "اليـوم أنـا حكيم، ولـذلك سأغيّر نفسي"!. وهذه نقطـة مهمّـة في سـبيل فهم مضـامين هـذه الحكمـة العظيمـة، وهي، أي هذه النقطة عن الكشف في مقابل التفكّـر، هي أيضـا في قلب طـرح الشـيخ الأكبر محي الدين بن عـربي الأندلسـي (صـاحب لقب "الكـبريت الأحمـر"؛ ت. ١٢٤٠ م) الذي وصل إلى أن يتجرأ على كتابة: "كل تفكّر لا يعـوّل عليـه"! (راجـع "كتـاب الـذي لا يعوّل عليه")ـ التفكير الفرداني لا يلقى ترحيباً من قبـل المـدارس اليسـارية عمومـاً، لا سيما منها الماركسية والتي يمكن أن تتهم الرومي – بالمناسبة – بالتـآمر، المقصـود أو غـير المقصـود، مـع الأقليـة الرأسـمالية فرضـيّات تشـاؤميّة وقدَريّـة وأنانيّـة وفردانيّـة الفرضيّة الأولى التي يمكن استقراؤها (بالتفكّر طبعا؛ لأننا، إذ نكتب مقالا، لا نـزال في هذا العالم..)، هي أنّ تغيير الواقع الخارجي من خلال الجهد الفـردي مسـتحيل (أو شـبه مسـتحيل). وهـذه فرضـية موجـودة في كثـير من الأوسـاط التشـاؤمية والجبريـة، وفي المدارس الفلسفية التي تنفي الخيار والإرادة الفرديين و/أو تأثيرهما، ومنها فيلســوف غربي معاصر هو Sam Harris الذي يذهب بعيدا في نفي الـFree Will أي "الإرادة

الحرّة" من أصلها. لكنّ هـذه الفرضـية لا يمكن أن تكـون فرضـيّة رجـال كـالرّومي وابن عربي وغيرهم، والذين يعطـون للإنسـان مقـام المظهـر الأتم لتجلّي الصـفات الإلهيـة، ومن هذه الصفات الإرادة والقدرة، عـداك عن نظـرتهم المتفائلـة في جوهرهـا. كمـا لا يمكن للفرضية "الأنانيّة" أن تُقبل عندهم، وهم أهل الحبّ المطلـق وأهـل الصـراع ضـد "الإنّيّة" (Ego) و"الأنانيّة" (Egoisme)، إلى حد الشطح في أقوال كأقوال البسطامي والحلاج المفترضة ("سبحاني"، "أنا الحق"، "ما في الجبّة إلا الله")، وهي جميعها تدلّ على نفي الأنا أو ذوبانها في بحر الواحديّة والأحديّـة ("بيـني وبينـك - إنّي - تزاحمـني، فانزع بأنّك - إنّي - من البينِ" على حد قـول الحلاج). الفرضـية الأنانيـة، وهي موجـودة في كثير من كتابات الليبرالـيين البريطـانيين والأمريكـيين مثلا، لا مكـان لهـا طبعـا في هكذا مدرسة صوفيّة عشقيّة كونيّة واحديّة. وهناك أيضا فرضية "فردانيّـة" ولكنهـا أكـثر قربا إلى الإيجابية، بـالمعنى البراغمـاتي خصوصـاً. بتعبـير آخـر: إذا غيّـر كـل واحـد منّـا نفسه، نصل تدريجياً إلى "تغيير ما" في المجتمع (وهي نظرة قويـة جـداً في الأوسـاط الشعبية الغربية). عليك إذن بالتركيز على تغيير نفسك (وعائلتك الضيقة)، وهذا سيؤدي حكماً، مع مسـاعدة النظـام الـتربوي والإعلام، إلى تغيـير عاجـل أم آجـل في المجتمـع. برغم براغمتيتها وايجابيتها الظاهرة، تخرج هذه النظرة ذات الطـابع الليـبرالي-الفـردي المهيمن عن دائـرة القبـول عنـد حكمـاء من طينـة جلال الـدين الـرومي وأمثالـه، لأنهـا تتنافى مع ظاهر كثير من النصوص ("أُذن للذين يُقـاتَلون بـأنهم ظُلمـوا، وإنّ اللـه على نصـرهم لقـدير"، القـرآن الكـريم: ٢٢ : ٣٩؛ "يؤمنـون باللـه واليـوم الآخـر ويـأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخـيرات واولئـك من الصـالحين"، مصـدر سابق، ٣ : ١١٤)، ومع أغلب سيرة النبي محمد (ص) والأئمة من أهل بيتـه (ع) وصـحابته رضي الله عنهم (ومنه قول الحسين بن علي عليه السلام قبـل استشـهاده: "واللـه مـا خرجت أشرا ولا بطرا، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جـدّي"). ثمّ إنّ هكـذا نظـرة تصطدم بالواقع العملي لا محالة، وبالتاريخ، لأن التغيير والثورة قد فُرضا غالبا من قبـل نُخب ومن قبـل الغَلبـة الحزبيـة والعسـكرية والمؤسسـاتية (راجـع النقاشـات بين لـوك، وهيــوم، وروســو، وهــوبس، ومونتســكيو إلخ.؛ كمــا النقاشــات، في الاقتصــاد، بين الليبراليين الكلاسيكيين وبين المدرسـة الكينيزيـة من J.M. Keynes).. هـذا مـا يـذكّرنا بالتيارات التي انبرت للدفاع عن فكرة أن الإنسان، إذا أصـبح حـراً وأصـلح نفسـه، وأخـذ قراراته بشـكل عقلاني، لا بـدّ من أن يـدفع بمجتمعـه نحـو الأفضـل أخلاقيـاً واجتماعيـاً واقتصادياً بالتأكيد إنّ هذا التفكير الفرداني لا يلقى ترحيباً من قبل المدارس اليســارية عموماً، لا سيما منهـا الماركسـية والـتي يمكن أن تتهم الـرومي - بالمناسـبة - بالتـآمر، المقصود أو غـير المقصـود، مـع الأقليـة الرأسـمالية. وذلـك التـآمر المفـترض هـو على الطبقـات المسـحوقة والمستضـعفة من خلال نشـر هكـذا فكـر يشـدد على الفرديـة. والعقلية الماركسـية، وهي محقـة في بعض زوايـا القضـية، تعتـبر أن عـددا من الأفكـار الدينيـة الميسـطيقية قـد شـكل عـاملا من عوامـل التخـدير للشـعوب، من خلال التـآزر المباشر أو غير المباشر بينه وبين الليبرالية-الفردية والرأسمالية. وسوف نوضح في ما يلي أنّ الــرومي وأمثالــه، حقيقــة، هم في عــالم وجــودي (أنطولــوجي) ومعــرفي (أبستيمولوجي) وأخلاقي مختلـف كليـاً وبعيـد جـذريّاً عن كـل هـذه النقاشـات. على أنّ المدارس الليبراليـة لا تتوقـف عنـد هـذا الحـد "البسـيط" من الوسـائل في الـدفاع عن فكرتها. وهذا ما يذكّرنا بالتيارات التي انبرت للدفاع عن فكرة أن الإنسان، إذا أصبح حراً وأصلح نفسه، وأخذ قراراته بشـكل عقلاني، لا بـدّ من أن يـدفع بمجتمعـه نحـو الأفضـل أخلاقيــاً واجتماعيــاً واقتصــادياً. ومن البــديهي أن نســتذكر مــدارس مثــل النّفعيّة (

Utilitarisme؛ راجع Jeremy Bentham و John Stuart Mill) والمدرسة "الهامشية" (Marginalisme)...ـ وخصوصا مدرسة فيينا الليبرالية في الاقتصاد، ومن شيوخها: Ludwig Von Mises و Friedrich Hayek. ومثلها ما سمّاه الليبراليون الكلاسيكيون بـ"توازن باريتو" أو L'équilibre parétien). مع التبسيط، كلها مدارس تدافع تقريبا عن فكرة جوهرية مفادها: أنّ القرارات الفردية إذا كانت حرّة بالفعل، وهي عقلانية بالطبع، لا بدّ من أن تؤدي في النهاية إلى تحسين وضع المجتمع ككل، إما من خلال تكوين نخبة ترتقي بالمجموعة، أو من خلال تحسين وضع الأفراد بشكل عام (هذه الفكرة الأخيرة تعتمد التفكير الرياضي والكمي عادة). لا شك أنّ المدارس الليبرالية-الفردية لديها حججها القوية نسبيا، ولا شك أيضا أن مخالفيها من ماركسيين واشتراكيين وغيرهم لديهم حججهم القوية أيضا. لكن، كما سبق وأشرنا، فكل هذه الفرضيات، مع قوّتها النسبية، لا تستطيع أن تختصر النموذج-المثالي المختبئ خلف مقولة "مولانا" قيد النقاش. من الحكيم طبعا أن أعمل على تغيير نفسي قبل أي شيء آخر، بسبب الطبيعة الفرديّة لخواتيم أعمالي؛ ولكنّ هذه الخواتيم لا يمكن أن تكون إيجابية إلا إذا كنتُ في تموضع منافٍ للأنانيّة و"الفردانيّة" ماذا يقصد "مولانا": بين السّر وسرّ-السّر؟ كيف يمكن إذن اختصار هذا النموذج-المثالي للعقيدة الساندة لهذه المقولة، والذي يشكل، بطبيعة الحال، الفرضية التي نرجّحها؟ في الحقيقة، يمكننا الفصل في هذا الإطار بين نموذجين سوف نسميهما: "النموذج المعتدل" (المعادل لـ"الفرضية الضعيفة") و"النموذج الأوسع" (المعادل لـ"الفرضية القوية"). ومن الواضح، كما سنرى، أنّ تبنّي الأول لا يفرض بالضرورة تبنّي الثاني؛ في حين أن تبنّي الثاني يفرض بالضرورة تبنّي الأول (أي أن الثاني "شامل" للأول). أما بالنسبة إلى النموذج الأوّل – ونحن نركّز لهدف التبسيط، بشكل خاص، على الحكمة الصوفية الإسلامية لا سيما منها ما يسمى أحيانا بالتصوف الإشراقي (أي الممتد من السهروردي المقتول إلى محي الدين ابن عربي إلى صدر الدين القونوي وتلاميذ الشيخ الأكبر الآخرين، إلى الجوانب العرفانية من مدرسة صدر الدين الشيرازي ومشتقاتها) – فالفوز والارتقاء و"الخلاص".. كلّها شؤون فردية طبعاً. فأنت لن تقف أمام ربّك كمنتمٍ إلى جماعة (قد تتدخل جماعتك من خلال بعض الزوايا الاستثنائية كالشفاعة وما إلى ذلك..)، وإنما كنفس. إنك، حسب هذه النظرة، سوف تقف أمام ربّك كنفس لها ميزانها الفردي ("بل الإنسان على نفسه بصيرة"، القرآن الكريم، ٧٥ : ١٤؛ "لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه"، ٨٠ : ٣٧؛ "من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها، ولا تزر وازرة وزر أخرى، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا"، ١٧ : ١٥[...]). إنّ قضيتك مع هذا الوجود، خصوصا من زاوية الخواتيم ومصيرك الأبديّ، هي قضية "فرديّة" بلا شك.. هذا من جهة. لكن، من جهة أخرى، إنّ طبيعة هذا الوجود مبنية على المحبّة.. وهي محبّة مطلقة غير محدودة ولا مشروطة، ولولاها لما "اضطر" جوهر الوجود (أو "الوجود الحق") إلى إيجاد موجودات "منفصلة" عنه ولو ظاهرا. إنّ طبيعة الوجود الحقيقية هي "واحِديّة" (Unicitaire)، لا تتفق مع الأنانيّة والإثنينية. ولذلك، فإن فوزك وارتقاءك وخلاصك.. كلها مرتبطة أيضا بقربك من المحبة والواحدية وببعدك عن الإنيّة والأنانيّة. وبالتالي، في حياتك الدنيوية والبرزخية، لا يمكن أن يُقبل منك ــ بتاتا – موقف سلبي تجاه الآخرين (من الإنس أو من غيرهم من الموجودات). لذلك، لا بدّ لك من العمل على تطبيق "المحبّة" و"الواحديّة" في جميع أوجه حياتك، لأنك تحمل هذه الصفات الإلهية في روحك الباطنيّة الأزليّة. المهم: (١) إنّ فوزك أو ارتقاءك أو خلاصك في الآخرة هو شأن فردي؛ لكنّ (٢) طبيعتك العشقيّة والواحديّة – الإلهيّة – "تشترط"، في سبيل نيل

هذا الفوز أو الارتقاء أو الخلاص، أن تحبّ الآخرين من جهة، وأن تعمل على تحسين ظروفهم ("العمل"- هو نوع من الابتلاء الدنيوي طبعا) من جهة أخرى. إنّ العمل الفردي والعمل على مساعدة الآخرين والمجتمع هو واجب إلهي في هذه النظرة. في خلاصة هذا النموذج الأول، يكون من الحكيم طبعا أن أعمل على تغيير نفسي قبل أي شيء آخر، بسبب الطبيعة الفرديّة لخواتيم أعمالي؛ ولكنّ هذه الخواتيم لا يمكن أن تكون إيجابية إلا إذا كنتُ في تموضع منافٍ للأنانيّة و"الفردانيّة". إقرأ على موقع 180 لبنان.. فرصة فرنسية ذهبية لن يُفوّتها ماكرون هكذا يمكن اختصار معالم النموذج-المثالي الأول الذي يمكن استقراؤه من خطاب وكلمات هؤلاء الحكماء. ولكن، هل تتوقف القضية عند هذا الحد (الذي يتضمن، طبعاً، قبولاً بفكرة امكانية تغيير الواقع الخارجي من خلال العمل، ومنه واقع المجتمعات البشرية ولو بشكل محدود بسبب طغيان أكثرية البشر واستسلامهم لأهوائهم ولحُجبهم..)؟ إنّ ما أثار تعجّبي واستغرابي – ثمّ مع الوقت: وجدي وابتهاجي – هو اكتشافي أنّ القضية أعمق و"أخطر"، ولا تتوقف على التصوف الإشراقي كما سميناه، بل تتخطاه إلى مدارس صوفية (بمعنى ميسطيقية) من كل الأديان والثقافات والعصور. فالأطروحة التي يمكن أن تختصر هذا "النموذج الأوسع" الثاني، باستطاعتنا أن نكتبها كما يلي: إنّ وعي الفرد الداخلي ليس منفصلاً "عن" – بل هو جزء لا يتجزأ "من" – الوعي الكوني الكلّي. أو بعبارة هي أقرب إلى العلوم الحديثة: إنّ المادة ليست منفصلة عن الوعي بتاتا، بل إن هذا الأخير يؤثر عليها (البعض يقول على غرار هنري كوربان: هو "يتخيّلها" أصلا..). أو بعبارة أخرى هي أقرب إلى تعبير أهل التصوف: يظن الإنسان أنه جرمٌ صغير، ولكن الحقيقة هي أنّ العوالم كلّها، باطنية كانت أم ظاهرية، قد "انطوت فيه". أو على حد تعبير بعض أهل الفلسفة: الواقع الخارجي هو في جوهره وهمٌ، والحقيقة هي في عالم الوعي الداخلي. وبالتالي، يصبح فهم جوهر عبارة جلال الدين الرّومي عن التغيير والثورة أقرب: إذ أنّ العوالمَ قد انطوت في داخلي، أنا "الكون الجامع" المحتمَل، ولذلك، فإنّ تغييري لنفسي لا بدّ من أن يؤدّي – بشكل أو بآخر – إلى تغيير هذه العوالم. إذا استطعت، حقّا، أن أصلح نفسي وأن أرتقي بها، فلا بدّ للعوالم التي "تُحيط" بي (أو أنا الذي "أحيط بها" بتعبير أدق) من أن تتحسّن وترتقي. وكلّما كثر أمثالي من سالكي طريق "الولاية" الروحيّة، كلّما ارتقى الوجود الإنساني ككل نحو الأعلى، وهذا هو الارتقاء الحقيقي، وهذان هما "التغيير" و"الثورة" الحقيقيان. الثورة إذن هي ثورة على النفس قبل أي شيء. بالطبع، من الأفضل أن يكثر الحكماء والعرفاء من هذا النوع حتى يكون "التغيير" أسرع، وأكثر فعالية وعمقاً. ولكنّ وجود الأولياء في كل قوم هو بذاته ما يجعل التغيير (خصوصا: الارتقائي منه) مستمرا رغم كل الظروف الصعبة للإنسانية. ومن هنا تأتي الأفكار حول "الدولة الباطنية" للأولياء في كل زمان، ونظرية الأقطاب و"القطبية الكبرى" عند ابن عربي وأتباعه وكذلك عند بعض حكماء الهند والشيعة.. ومن هنا أيضا بعض الأفكار حول الأولياء والكُمّل والقدّيسين.. فإنّ لهم دورا يتخطى الدعوة والتبشير والتعليم: إلى دور هو وجودي بامتياز (فبعضهم أقطاب للوجود برمته)، أو كوني (فبعضهم تقوم الأكوان عليه)، أو حتى عملي-مجتمعي (فوجود بعضهم بيننا هو السبب الباطني-الحقيقي في ارتقائنا كجماعات، أو على الأقل، هو الذي يجنبنا الأسوأ على طريقة "وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون"، ٨ : ٣٣). وهذا العالم الباطني ليس بالوهم بتاتاً عند هؤلاء الناس، فهم يعيشون فيه يقينا برأيهم، حتى وصل هنري كوربان يوما، وهو يدرس ابن عربي، إلى أنّ الشيخ الأكبر (أي محي الدين بن عربي) كان يعيش في عالمنا الدنيوي هذا.. فقط

في الظـاهر. كيـف لا، وهـو (أي ابن عـربي) يحكي أنـه يلتقي مثلاً مـع أوليـاء هم من الصـفاء والارتقـاء بحيث لا يـدعون اللـه في شـيء إلا وعنـدهم اليقين المطلـق بأنـه سيستجيب لدعائهم! ولا يمنعهم من الدعاء في كل الأشياء إلا خجلهم واسـتحياؤهم من الحبيب الأعلى، وثقتهم المطلقة في مشيئته.. من الطـبيعي أن يقـول أحـدهم أنّ هـذا الشيخ وأصدقاءه كانوا يعيشون "بيننا" فقط في الظاهر. هـل يمكن الحـديث عن تغيـير خارجي-مادّي من دون تغيـير داخلي-روحي؟ هـل يمكننـا الاسـتهانة بالعلاقـة المفترضـة هذه بين الوعي الداخلي والظواهر الخارجية؟ وهذه حال العرفـاء القـدماء والمعاصـرين عندما تسألهم عن أمور الدنيا مثلا، ومنهم العارف الإيراني المعاصر: الشيخ محمـد تقي البهجة (توفي عام ٢٠٠٩ ميلادي). فأمام مصاعب الحياة ينصح الشيخ البهجة بالإكثار من الاستغفار مع "اعتقاد كامل" (راجع كتاب "الناصح" الذي نشر بعد وفاتـه). ولاسـتجلاب الرزق ينصح، مثلا، بالإكثـار من ذكـر: "اللهم أغنـني بحلالـك عن حرامـك وبفضـلك عمّن سواك"، أيضا مـع "اعتقـاد كامـل". وكـذلك الحـال في أمـور متنوعـة كتقويـة الـذاكرة، واسـتجلاب الرخـاء المـادي، والـزواج، وتجنب الظلم إلخ. وكثـيرة هي الأمثلـة من عـالم التصوف والعرفان. غير أنّ عبارة "الاعتقاد الكامل" هي التي سوف تقرّبنـا من منظـار العلوم الحديثة، ومنظار النظريات المحدَثة حـول العلاقـة بين الـوعي الـداخلي والواقـع الخارجي. الأمثلة هنا كثيرة أيضاً، وليست آخرهـا ظـاهرة فيلم "السّـرّ" (The Secret) لروندا بايرن المنتشرة بشـكل لافت (من خلال Netflix وغـيره)، ولا طـرح الفيلسـوف المعاصـر بـوب بروكـتر عن "قـانون الجاذبية" (Law of Attraction)ـ فـ"الاعتقـاد الكامل" ليس فقط عبارة وفكرة تخصان الشيخ محمد تقي البهجة وحـده: بـل يبـدو أنـه قانون يؤمن به فلاسفة وعلماء ومدرّبون شخصـيون كثـيرون ومعاصـرون، ويقـوم على فكرة أنّ ما تؤمن به بشكل صلب ومتين، لا بدّ من أن يتجلّى في الواقع الخارجي بشكل أو بـآخر. وهـذا مـا انكبّ على برهانـه وشـرحه ضـيوف فيلم وكتـاب "السّـرّ" من جميـع التخصصات مثلاً. ومن الأطروحات الأكثر جدّيّة ومتانـة في هـذا الإطـار (والمتـأثرة على الأرجح بأعمال عالم النفس الكبير: كارل جونغ)، ما يتضمنه كتاب "قوة عقلك البـاطن" للاهوتي والداعية الإيرلندي جوزف ميرفي (توفي عام ١٩٨١)، والموجـود في المكتبـات العربية حاليا. إنّ أطروحة ميرفي قائمة على الفكرة نفسها تقريبا، في النجـاح المـادي وفي الثراء وفي العلاقات الاجتماعية وفي الشـفاء: إذا آمنت بفكـرة مـا بشـكل مـتين، وتصورتها في وعيك بشكل مسـتمر وصـلب، ثمّ عشـت وكأنّهـا تحقّقت بالفعـل (لا أنهـا "سوف تتحقق")... فهي ستتحقّق حكماً! يدعوك أهل قانون الجاذبيّـة وأخواتـه إلى "أن تعيش على موجة ما تتمنّاه" لكي يتحقّق حُكماً. وما لا يعرفـه أكثرنـا هـو أنّ بين هـؤلاء، أي بين أهل مدرسة "قانون الجاذبية" وأخواتـه، من هم "أهـل علم" بـالمعنى الحـديث، المباشـــر. ومن الأمثلـــة، كثـــير من العلمـــاء المتـــأثرين بفيزيـــاء الكم (Physique Quantique)ـ من طراز الفيلسوف وعالم الفيزياء النظريـة دايفيـد بـوهم (تـوفي عـام ١٩٩٢)، الذي جاء واقعا بنسـخة عصـرية لنظريـة وحـدة الوجـود الصـوفيّة. وأغلب هـؤلاء العلمـاء يسـتند إلى مـا يمكن تسـميته بملاحظـات الفيزيـاء الكميّـة العجيبـة: من تـأثير للمراقب، مثلا، على تصرّف جزيئيات المادّة الصغيرة (عمل "بـوهم" مثلا على التصـرف الغريب للإلكترونات). وهي ملاحظات يمكنها بالفعل أن تضرب كل مسـلماتنا كبشـر عن الزمان والمكان والحقيقة الجوهرية للمادّة وللواقع الخارجي. ومن الكتابات ذات الطابع العلمي أيضا، بحث "أسرار الـوعي" (Les Mystères de la Conscience)ـ لميريـام غابلييه (نشر عـام ٢٠١٩)، وهـو كتـاب يـبيّن لـك أنّ ظـواهر كالحـدس والأحلام التنبؤيـة والتخاطر (إلخ) هي حالياً مواضـيع للبحث العلمي الجـدّي، وفي مجلات علميّـة، عالميـة،

محكّمة.. وتبيّن غابلييه كيف أنّ طرح الفصل الجذري الكلاسيكي بين الوعي والمادّة قد اقترب من الانفجار النهائي، مع انتشار هكذا دراسات وتجارب، تضع الوضعية الأنطولوجية والأبستيمولوجية على المحك. ويبلغ هذا التوجّه ذروته بلا ريب مع حقل لم يزل يكتسب أهميّة يوماً بعد يوم: هو حقل "تجارب الموت الوشيك" الذي أطلقه بلا شك الطبيب والفيلسوف الأمريكي رايموند موودي في كتاب "الحياة بعد الحياة" (Life After Life)ـ عام ١٩٧٥. ومن التجارب التي أصبحت ذائعة الشهرة والصيت، تجربة السيّدة المولودة في سنغافورة وذات الأصول الهندية، صاحبة كتاب "متّ لأصبح أنا" (٢٠١٥ (Dying to be Me)، والتي نالت الاهتمام الفائق من قبل مفكّرين روحيّين عالمّين مشهورين من طراز واين داير وديباك شوبرا. تنقل هذه السيدة – وهي Anita Moorjani التي نجت بأعجوبة من مرض السرطان وبشكل مفاجئ وموثّق من قبل الأطباء – أنها انتقلت خلال هذه التجربة إلى بُعد وجوديّ مختلف عن البُعد الذي نعيش فيه.. حيث وجدت نفسها "على نفسها بصيرة"، وأنّ العالم الخارجي ما هو إلا انعكاس لوعيها الداخلي، وكأنّ كلّ شيء يحدث – في الحقيقة – داخل وعيها! ومن نصائح موورجاني، طبعا، أنّ التغيير الداخلي هو التحدي الأكبر وهو الذي يأتي بالتغيير الحقيقي وبالثورات الحقيقية.. كثيرة هي الأمثلة المؤيّدة لهذه "الفرضيّة القويّة" كما سمّيناها، والتي تفسّر معنى حكمة الرّومي بالطريقة الأكثر إخلاصاً لما تقصده، برأينا، وانطلاقاً من كلّ الحقول والعصور.. هي، باختصار، فرضية تؤمن: بأنّ التغيير الداخلي هو الذي يؤدّي إلى التغيير الخارجي الحقيقي، لأنها تستند إلى فكرة أنّ العوالم الخارجية ما هي إلا انعكاس للوعي الإنساني الداخلي (راجع "مبدأ البشرية" أو Principe Anthropique للفيزيائي براندون كارتر على سبيل المثال).. فكأنّ هؤلاء المفكّرين والسالكين والحكماء جميعا يشكّون بأنّ مبالغة البعض بالتشديد على الثورة الخارجية، وبشكل هوسي أحياني، هو هروب، واع أو غير واع، من صعوبة ووعورة طريق التغيير الداخلي.. إنه لموضوع شيّق، ويصعب اختزاله في بضع صفحات، ولكنّه يطرح أسئلة جوهرية في ما يخص إرادة التغيير والثورة لدى الشعوب: هل يمكن الحديث عن تغيير خارجي-مادّي من دون تغيير داخلي-روحي؟ هل يمكننا الاستهانة بالعلاقة المفترضة هذه بين الوعي الداخلي والظواهر الخارجية؟ والأهم: هل إنّ صعوبة تغيير الواقع الخارجي مرتبطة أحيانا بضعف إيماننا الداخلي الجماعي بإمكانية حدوثه؟ كلّها أسئلة أظن أنها مهمّة وجوهريّة، بالرغم من ظاهرها القريب من نقاش الما-ورائيات.. هي أسئلة تعني شعوب العالم بأسره.. وقد تعني اليوم، بشكل خاص، الشعب اللبناني.